على ذكر الموسوعة الايطالية

قصة الموسوعة الجامعة

وكيف عرفها الآداب العربية في العصور الوسطى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

سجل العلم الحديث فتحاً جديداً خطير الشأن بصدور الموسوعة الايطالية (دائرة المعارف)[1] التي بدأ صدورها منذ أعوام ثلاثة فقط ، وصدر المجلد الأخير منها (وهو المجلد السادس والثلاثون) منذ أسابيع قلائل . وإذا كنا ممن لا يؤمنون بمزايا النظام الفاشستي ، فانه لا يسعنا إلا أن نحيي ذلك المجهود العظيم الذي حققه العلم الايطالي في تلك الفترة الوجيزة ، والذي يعتبر بحق مفخرة للعهد الفاشستي ، خصوصاً وأن الموسوعة الجديدة جاءت حسبما يقرر النقدة مجهوداً علمياً خالصاً بعيداً عن شوائب الدعاية والأهواء

ولهذه الموسوعات العظيمة التي تحشد فيها سائر العلوم والفنون والآداب تاريخ حافل يرجع إلى أقدم العصور ؛ وإذا كانت تغدو اليوم مورداً سهلا لكل طالب وقارىء بما انتهت إليه من سهولة في الترتيب والتصنيف ، فانها لم تصل إلى نظامها الحالي إلا بعد أن تقلبت في أطوار عديدة ، واشترك في تنظيمها كثير من الأذهان في مختلف العصور والأمم ؛ وكان لتفكيرنا العربي ، حسبما نرى ، نصيب يذكر في هذا الميدان

وأصل الكلمة أي كلمة « انسيكلوبيديا » التي تطلق اليوم في جميع اللغات الحية على جميع الموسوعات العلمية والأدبية يوناني ، وأصل الفكرة ذاتها يوناني أيضاً ؛ وكانت تعني في اليونانية القديمة مجموعة المعارف التي يجب أن يتزود بها الفتى لاستقبال الحياة العملية ؛ ثم استعملها الرومان وأضحت بمضي الزمن تطلق على جميع العلوم مجتمعة في سفر واحد . وأقدم مجموعة من هذا النوع انتهت إلينا هو مؤلف بلني الكبير في التاريخ الطبيعي الذي يرجع إلى القرن الأول من الميلاد ، وهو مؤلف شامل يتناول كل ما كان معروفاً في ذلك العصر من الطب والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وغيرها من الفنون

ووضعت خلال العصور الوسطى باللاتينية عدة مصنفات شاملة من هذا النوع ، وكان واضعوها بالأخص جماعة من رجال الدين الذين توفروا في تلك العصور على جمع أشتات العلوم والفنون ، بيد أن هذه المصنفات القديمة كان ينقصها روح التناسق والترتيب العلمي ، ولم تظهر فكرة الموسوعة (الانسيكلوبيديا) بمعناها الحديث إلا منذ القرن السادس عشر . ولم تظهر طلائع الموسوعات الحديثة بترتيبها الفني أو الأبجدي إلا في القرن السابع عشر كما سنرى

وهنا ، وقبل أن نمضي في استعراض تاريخ الموسوعة الحديثة يجدر بنا أن نشير إلى الدور الذي أداه التفكير العربي في هذا الميدان ؛ فقد عرفت الآداب العربية فكرة الموسوعة بمعناها الشامل ، وحققت في هذا الباب جهوداً خليقة بالاعجاب والتقدير . ومنذ القرن الثالث الهجري يبدو أثر هذا الميل إلى التصنيف الشامل واضحاً في كثير من الآثار العربية ، ونستطيع أن نلمس هذا الأثر في كتب مثل عيون الأخبار لابن قتيبة ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والأغاني لأبي الفرج ، وهي مصنفات يطبعها طابع الموسوعة فيما تتناول من مختلف الموضوعات والأخبار . كذلك نجد روح الموسوعة ظاهراً في كثير من المصنفات التاريخية العربية ؛ فكتاب الكامل لابن الأثير مثلا يعتبر بحق موسوعة تاريخية شاملة تجمع بين مزايا التعميم والترتيب المدهش ، وكتاب الوفيات لابن خلكان بلا ريب من أقيم موسوعات التراجم . ومما يلاحظ أن الموسوعة الأوربية الحديثة بدأت كما سنرى بهذا النوع من المصنفات والمعاجم التاريخية الشاملة

على أن الآداب العربية عرفت في مصر نوعاً أتم من الموسوعة الكبيرة الشاملة ؛ ونستطيع أن نقول إن القرن الرابع عشر في مصر كان عصر الموسوعات ؛ ففيه أخرج شهاب الدين النويري المتوفى سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) موسوعته الضخمة « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، وأخرج ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) موسوعته الجغرافية والتاريخية العظيمة « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ؛ وفي أواخر هذا القرن وضع القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) موسوعته

(1) Encyclopaedia Italiana

السياسية والادارية الضخمة « صبح الأعشى » ، وفى هذه الآثار النفيسة الشاملة نرى طابع الموسوعة وروحها بارزين لا من حيث الضخامة وسعة الأفق فقط ، بل ومن الناحية العلمية والفنية أيضاً ؛ فكتاب نهاية الأرب الذى يشغل نحو أربعين مجلداً ضخما هو موسوعة تاريخية وجغرافية وأدبية وعلمية وفنية ، يأخذ فى كل من هـذه النواحى بنصيب وافر ؛ وكتاب « مسالك الأبصار » الذى يبلغ نحو عشرين مجلداً ، هو موسوعة جغرافية وتاريخية حقة ، لا يقل من الناحية العلمية والفنية عن كثير من الموسوعات الأوربية المماثلة التى صدرت فى القرن السابع عشر ؛ وكتاب « صبح الأعشى » الذى أصدرته دار الكتب المصرية فى أربعة عشر مجلداً ضخما ، هو موسوعة فذة فى نوعها وقيمتها فهو « دار محفوظات » بأسرها جمعت فيه معلومات ووثائق إنشائية وإداريه وسياسية عن الدول المصرية لم تجتمع فى أى مؤلف آخر

هذه الآثار العربية التى نذكرها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر ، تدل دلالة واضحة على أن فكرة التصنيف الجامع أو بعبارة أخرى فكرة الموسوعة الشاملة ، عرفت فى الآداب العربية وبلغت فيها شأناً يذكر ؛ بيد أن هذه المحاولة العلمية الجليلة وقفت مع الأسف فى منتصف الطريق وحالت دون تقدمها عصور محزنة من الركود والانحلال توالت على التفكير العربي

* * *

ونعود الآن إلى الموسوعة الأوربية ، فنقول إن طلائع الموسوعات الحديثة ظهرت منذ القرن السابع عشر ، وكان ظهورها بالأخص فى فرنسا ، حيث صدر فى سنة ١٦٧٤ معجم موريرى التاريخى المسمى « القاموس التاريخى الكبير » Grand Dict. Historique مرتباً ترتيباً أبجدياً ؛ وصدرت فى سنة ١٦٩٧ موسوعة بايل التاريخية المسماة « القاموس التاريخى النقدى » Dict. Historiqu et Critique مرتباً على الحروف أيضاً ؛ وظهرت أيضاً فى أواخر هـذا القرن موسوعة دربلو الشرقية المسماة « المكتبة الشرقية » ؛ ثم تطور نظام الموسوعة بسرعة ، فاتجهت إلى التوسع والترتيب الفني والأبجدى ، وأخذت تغدو شيئاً فشيئاً مرجعاً شاملا لأشتات العلوم والفنون ، وتشعبت مناحيها شيئاً فشيئاً حتى غدت مشروعاً علمياً جامعاً ، بعد أن كانت مجهوداً فردياً فقط ، وساهمت فى إخراجها جميع الآداب الحية بأوفر نصيب

فى انكلترا بدأت الموسوعة الحديثة بقاموس وضعه القس جون هاريس فى أوائل القرن الثامن عشر عن العلوم والفنون Lexicon Technicum ثم تبعه تشامبرز بموسوعته Cyclopeabia ويعتبر تشامبرز أبا الموسوعة الانكليزية . وفى سنة ١٧٦٨ ، وضع ثلاثة من أهل ادنبورج ، وهم وليم سميلى الطابع ، واندروبل المصور الحفار ، وكولن مكفرکوهار ، وهو صاحب مطبعة ، مشروعاً لاصدار موسوعة جامعة للعلوم والفنون والآداب ، ظهرت فى ثلاثة مجلدات فى سنة ١٧٧١ ؛ وكانت هذه الموسوعة المتواضعة هى الطبعة الأولى من الموسوعة البريطانية Ency. Brittanica ، التى هى اليوم أمثل وأنفس الموسوعات الحديثة . وظهرت الطبعة الثانية بين سنتى ١٧٧٧ و ١٧٨٤ فى عشرة مجلدات ؛ وتوالى صدور طبعاتها الجديدة حتى صدر منها إلى اليوم خمس عشرة طبعة متدرجة فى الضخامة والاتقان ؛ وصدرت طبعتها الأخيرة والخامسة عشرة فى سنة ١٩٣٤ ، فى اثنين وثلاثين مجلداً ضخما غير الفهارس والأطالس ؛ والرأى مجتمع على أن الموسوعة البريطانية هى خير موسوعة فى العالم من حيث مادتها ونظامها وروحها العلمى الخالص

وفى فرنسا ، بعد أن ظهرت المعاجم والموسوعات التاريخية التى أشرنا إليها ، وضع المفكر الفيلسوف ديدرو وعدة من زملائه الأعلام مثل دالامبر وهولباك وجريم موسوعتهم الشهيرة التى ظهرت بين سنتى ١٧٥١ و ١٧٧٢ فى ثمانية وعشرين مجلداً على نمط موسوعة تشامبرز الانكليزية ؛ وكانت هذه الموسوعة التى امتازت بنزعتها الفلسفية المجددة ، وبالثورة على القديم فى كل شىء فتحاً عظيما فى التفكير الفرنسى ، وكان لها أكبر الأثر فى توجيه الذهن الفرنسي إلى الأفكار والمبادئ الجديدة التى سادت عصر الثورة الفرنسية فيما بعد . وظهرت فى القرن التاسع عشر موسوعات لاروس الشهيرة ، ومنها القاموس الكبير الذى يعتبر

فوق مزاياه اللغوية دائرة معارف شاسعة، وظهرت منها إلى يومنا عدة طبعات مختلفة؛ وفي أواخر القرن الماضي صدرت الموسوعة الفرنسية الكبرى La Grande Ency بين سنتي ١٨٨٦، ١٩٠٣ في إحدى وثلاثين مجلداً، بيد أنها بقيت على طبعتها الأولى حتى اليوم، وتخلفت بذلك عن مضمار التجديد والاستكمال

وظهرت في القرن التاسع عشر عدة موسوعات عظيمة أخرى فظهرت الموسوعة الايطالية لأول مرة بين سنتي ١٨٤١ و ١٨٥١ في أربعة عشر مجلداً، ثم ظهرت في أواخر القرن الماضي في خمسة وعشرين مجلداً، وظهرت أخيراً بعناية الحكومة الفاشستية في ستة وثلاثين مجلداً، صدر الأخير منذ أسابيع قلائل حسبما قدمنا فجاءت بذلك أحدث الموسوعات الأوربية وأتمها من الوجهة الفنية. وصدرت الموسوعة الألمانية في مائة وسبعة وستين مجلداً تحت عنوان «الموسوعة العامة للعلوم والفنون»، وبدأها الأستاذان أرش وجروبر سنة ١٨١٣ واستمر صدورها طوال القرن التاسع عشر ولم تكمل إلا في سنة ١٩٠٥، ولم يعد طبعها إلى اليوم. وصدرت الموسوعة الروسية حتى سنة ١٩٠٥ في واحد وأربعين مجلداً، وظهرت طبعتها الثانية في ظل الحكم السوفيتي

ويوجد غير هذه الموسوعات العامة الجامعة موسوعات أخرى في نواح معينة من العلوم أو الفنون، مثل الموسوعة اليهودية Jewish Ency، موسوعة الدين والأخلاق Ency of Religine and Ethics، موسوعة العلوم التافيزيقية، وغيرها؛ ولهذه الموسوعات قيمة علمية خاصة لأنها تجمع أشتات العلم أو الفن الواحد ومراجعه كلها مرتبة أبدع ترتيب

***

هذه خلاصة لتاريخ الموسوعة الجامعة (الانسيكلوبيديا) وتطوراتها، نسوقها لمناسبة صدور المجلد الأخير من الموسوعة الايطالية الجديدة؛ بيد أننا ننتهز فرصة هذه المناسبة لنلفت الأنظار إلى أمنية قديمة كثيراً ما رددتها دوائر الأدب العربي في الأعوام الأخيرة، وهي أن تعمل دوائرنا العلمية والأدبية المسؤولة لاخراج موسوعة عربية جامعة على طراز الموسوعات الحديثة؛ وقد بذلت في العصر الأخير جهود فردية في سوريا وفي مصر لاخراج موسوعة عربية، ولكن هذه الجهود لم تكن ذات قيمة علمية أو أدبية تذكر، خصوصاً وأنها بذلت في وقت لم تكن الآداب العربية قد بلغت فيه من النضج والكفاية الفنية ما تبلغه اليوم. ولم تبق الموسوعة اليوم عملا فردياً كما كانت في الماضي، ولكنها اليوم تنتظم في سلك المشاريع العلمية الجليلة التي تشرف على تنفيذها الدولة أو الهيئات العلمية القوية. ولدينا اليوم في مصر، فضلاً عن وزارة المعارف العمومية، عدة من الهيئات العلمية القوية الرسمية وغير الرسمية؛ فعى وسعها جميعاً أن تتعاون في بحث مشروع الموسوعة العربية، وفي العمل على تنظيمه وإخراجه. ومن المحقق أن مثل هذا المشروع الجليل يلقى من التأييد والنجاح في مصر وفي جميع البلاد العربية، ما لقيه حتى اليوم في جميع الأمم المتمدنة والآداب الحية.

محمد عبد الله عنان

فرصة لتحسين مركزك

دروس بالبريد بواسطة أساتذة اختصاصيين على أحدث الطرق المتبعة في المدارس والجامعات الغربية، للحصول على الشهادة الابتدائية أو البكالوريا. دراسة اللغة الأجنبية للتخصص في الصحافة والشعر والزجل وفن الروايات. الرسم والكاريكاتور. القانون والثقافة العامة. التجارة ومسك الدفاتر. الزراعة وفلاحة البساتين. الهندسة الميكانيكية والكهربائية وهندسة البناء، والهندسة الصحية. المساحة والطرق والكباري. السكك الحديدية. البلديات. المقاولات. التنظيم. المناجم. الراديو. التليفون التلغراف. التجارة. الحدادة. السيارات. الخ...

كتاب طريق النجاح في ٨٠ صفحة مقابل ١٠ مليمات طوابع بوستة فقط. قسيمة مجاوبة في الخارج. واكتب إلى مدارس المراسلات المصرية ١٠ شارع قنطرة غمرة مصر — تليفون ٥٠٣٥٩